

الوافي في الوفيات

بلغت به رتباً قرعن محلّةً ... أمست نجوم سمائها أقمار .
زانت فضائله بدائع نظمها ... كم معصمٍ أضحى يزين سوارا .
ومظفّر الأقلام كم أردى بها ... ملكاً وخوفاً جحفاً جرّارا .
عجباً لها تجري بأسود فاحمٍ ... يكسو الطروس ظلامه أنوارا .
تمضي بحيث ترى السيوف كليله ... وتطول حيث ترى الرماح قصارا .
تجري بواحدّها ثلاث سحائبٍ ... تحوي الصواعق والحيّا المدرارا .
وتمدّه بالفضل حين تمدّه ... ببديهةٍ لا تتعب الأفكارا .
إن رام نائله العفاة أمده ... كرماً وإن رام الخميس مغارا .
ملأ الكتاب تهدداً فكأنّما ... ملأ الكتاب أسنّةً وشفارا .
تجني الذواظر من محاسن خطّه ... روضاً ومن ألفاظه أزهارا .
خطّ رماح الخطّ من خدامه ... إن رام ذمراً أو أعزّ ذمارا .
وبلاغةٍ تضحى بأدنى فقرةٍ ... تغني فقيراً أو تقدّ فقارا .
ويشتم رواد الندى من بشره ... برقاً ومن إحسانه أمطارا .
بشر يبشّر بالجميل وعادة ال ... أزهار أن تتقدّم الأثمارا .
وندىّ يعمّ ولا يخصّ كأنه ... هامى قطارٍ طبّق الأقطارا .
يستصغر الأمر العظيم إذا عرا ... بعزيمةٍ تستهل الأوعارا .
ويردّ غرب الحادثات مفلّلاً ... بسعادةٍ تستخدم الأقدارا .
كم ذلّلت صعباً وردّت ذاهباً ... وحتّ أذلّ وذلّلت جيّارا .
ولقد عرفت الناس من أوطارهم ... سبحان من خلق الورى أطوارا .
يا من عرفت بجوده وجه الغنى ... حقاً وكنت جهلته إنكارا .
أغنيتني بمواهبٍ موصولةٍ ... لم تبق لي عند الحوادث ثارا .
لازلت في عزٍّ يدوم ونعمةٍ ... توفي على شمّ الجبال وقارا .

وكان قد غاب مدة عن دمشق في الديار المصرية ثم عاد إليها فأقام بها دون الشهر في التعديل فلما كان يوم الجمعة رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين وسبعمئة أصبح في بيته مذبوحاً وقد أخذ ما كان معه من الحطام وقلّ ما كان معه . وكان C تعالى ثلثةً للأعراض لا يكفّ غرب لسانه عن أحد في الشرق ولا في الغرب . وأنشدني من لفظه لنفسه بدر الدين حسن بن علي الغزي :

مات ابن قرصة بعد طول تعرضٍ ... للموت ميتة شرّ كلبٍ نابح .
ما زال يشخذ مدية الهجو التي ... طلعت عليه طلوع سعد الذابح .
حتى فرى ودجيه عبد صالح ... عقر النطيحة عقر ناقة صالح .
فليحي قاتله ولا شلّت يد ... كفت المؤونة كفّ كلّ جرائحي .
وقلت أنا أذكر فقره المدقع : .
دع الهجو واقنع بما نلته ... من الرزق لو كان دون الطفيف .
فقرض ابن قرصة عمّ الوري ... وراع الّـدَنّـي بهجو الشريف .
ومات ابن قرصة من جوعه ... وشهوته عضّـةٌ في رغيف .

الناصر ابن الناصر